التعليم

بين

فلسفة التربية القديمة

وفلسفة التربية الجماهيرية الجديدة

د. احمد مصطفى الحار

أمين شعبة علم النفس / جامعة مصراتة

إن النظام التربوي والتعليمي التقليدي القديم هو نظام في إطار فلسفة تربوية تقليدية عقيمة، ظلّ سائدًا فترات طويلة من الزمن، ولم يحدث في هذا النظام التربوي والتعليمي وفلسفة التربية التقليدية أيّ تطوّر أو تثوير، سوى تعديلات طفيفة، وتحويرات بسيطة ظاهرية وليست جوهرية وأساسية، أبقت النظام والمنهج التربوي التعليمي وفلسفة التربية التقليدية بعيدة عن التجديد والتطوير والتثوير[1]، وفي ظل هذه الفلسفة التربوية والتعليمية التقليدية القديمة أصبحت مؤسساتنا التربوية والتعليمية، وبيوتنا، وأسرنا،

---

1) محاضرة بعنوان: «التوجيه التربوي والاستثمار البشري»، بأمانة اللجنة الشعبية العامة للتعليم ببلدية مصراتة، 1984ف، د. أحمد مصطفى الحار.

بمثابة الأوساط التربوية البعيدة والمهجورة عن الحياة الواقعية والاجتماعية، والمشاركة الفعلية في حياة المجتمع، يسودها ويعمها الخوف، والضغوط النفسية والاجتماعية، والأوامر والنواهي التسلطية التعسفية، من قِبَل الكبار، والآباء والأمهات وأولياء الأمور، والمدرسين والمدرسات على التلاميذ والمتعلمين، وتُنقَل لهؤلاء المتعلمين والتلاميذ في هذه الأوساط المهجورة والبعيدة عن الحياة الاجتماعية والواقعية الأوامر والنواهي، والمعلومات والمعارف، والمقررات والمواد الدراسية والمناهج، عن طريق أساليب تربوية وتعليمية تقليدية قديمة وعقيمة، قائمة على الحفظ والاستظهار، والتلقين والترديد والسلبية، وتخزينها في عقول هؤلاء المتعلمين والتلاميذ، عبر دروس تقليدية عقيمة، وتجعل من هؤلاء المتعلمين والتلاميذ أدوات سلبية متلقية لمعلومات ومعارف نظرية، بعيدة عن واقعهم وحاجاتهم وآمالهم وأمانيهم وأهدافهم، ورغباتهم ودوافعهم[2]، وتحوّلت التربية والتعليم — وفقاً لهذا المفهوم القديم والتقليدي لفلسفة التربية، وللمفهوم التقليدي القديم للتربية والتعليم — إلى مجرد تلقين المعارف والمعلومات ليس إلاّ، وتتحول العملية التربوية والتعليمية — حسب هذا المفهوم لفلسفة التربية — إلى مجرد عملية حشو أدمغة المتعلمين والتلاميذ بدروس نظرية غير واقعية، وغير مفيدة لحياة هؤلاء المتعلمين والتلاميذ، بدلاً من أن تكون التربية والتعليم تساهم في بناء جيل جديد، وإعداده الإعداد السليم والصحيح للحياة، للمساهمة في خلق التطوّر والتقدم، وتحقيق أهداف المجتمع، وتحوّلت التربية والتعليم — وفقاً

2) محاضرات في مادة فلسفة التربية، لطلبة قسم الفلسفة والاجتماع، كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، العام الجامعي 1968-1969ف، د. محمد علي العريان.

للمفهوم القديم لفلسفة التربية – إلى مجرّد تخزين المعلومات والمعارف، والنواهي والأوامر واللوائح، بأساليب الخوف والضغوط والضرب، والتلقين والاستظهار، إلى تخزينها وترديدها عند الحاجة، وفي الاختبارات والامتحانات ليس إلاّ[3].

يسعى رجال التربية والتعليم، والآباء والأمهات، والمدرسين والمدرسات، وأولياء الأمور، وفقًا لفلسفة التربية التقليدية والقديمة في بيوتنا وأسرنا ومؤسساتنا التربوية والتعليمية والثقافية والاجتماعية – إلى صبّ تفكير المتعلمين والتلاميذ في قوالب جامدة، وحثّهم على اجترار الماضي، وتشجيعهم على التمسك الحرفي بنصوص الكتب المدرسية، والمقررات والمناهج التقليدية القديمة، حتى وإن كانت مخالفة ومضادة لرغباتهم وأهدافهم ودوافعهم وآمالهم وأمانيهم، وأهداف مجتمعهم الجديد الحر السعيد[4].

تأخذ فلسفة التربية القديمة من المعرفة الإنسانية، أو من المواد الدراسية والمقررات والمناهج، وبرامج التربية والتعليم القديمة منطلقًا لها، وتعتبرها الهدف الأساسي والرسمي للتربية والتعليم وأهداف الفلسفة التربوية، وتقدمها للمتعلمين والتلاميذ على أساس أنها مستقرة، ثابتة صادقة، مطلقة، تتحدى الزمان والمكان، ولا تقبل المناقشة أو الجدل، أو التغيير أو التطوير أو التبديل، وتُلْقَى بطريقة الإلقاء والتلقين والحفظ، والطاعة العمياء، ويكون فيها أولياء الأمور والآباء والأمهات، والمدرسين والمدرسات، أسياد الموقف

3) محاضرات في فلسفة التربية، د. محمد علي العريان.
4) محاضرة بعنوان: «التوجيه التربوي والاستثمار البشري»، د. أحمد مصطفى الحار.

في عملية التلقين والتحفيظ، وإعطاء الأوامر والنواهي، ولا تهتم إلا عرَضًا بالتلاميذ والمتعلمين، وتعتبر أيّ تخلّف لهذا الطالب أو التلميذ أو المتعلّم مردّه إليه، ومسؤوليته تقع عليه(5).

معنى ذلك أن المتعلم – وفقًا لمفهوم فلسفة التربية التقليدية القديمة — في فصله الدراسي، أو في وسطه التربوي والتعليمي، سواء كان المدرسة أو المؤسسة أو البيت أو الأسرة، سيكون سلبيًّا، يتلقى معلوماتٍ ومعارفَ جاهزةٍ، وأوامر ونواهي ومبادئ عامة، وما على هذا التلميذ أو المتعلم إلا قبولها وإطاعتها وحفظها، ولا يسمح له بالمشاركة الفعلية والإيجابية في نقلها وحفظها وتدريسها، أي المواد الدراسية، والأوامر والنواهي، والمقررات والمناهج الدراسية(6).

وتستند فلسفة التربية التقليدية القديمة من الناحية النفسية، إلى نظرية ثنائية الجسم والعقل، أو نظرية المَلَكات، أو القرائح العقلية، وهي نظرية خاطئة ومناقضة للواقع وللحقيقة، ومفاد هذه النظرية أن النمو عبارة عن عملية تنكشف فيها قوة أو قوى فطرية ذاتية، كامنة في طبيعة الإنسان، وأن التربية والتعليم هو إجراء اجتماعي لإماطة اللثام عن هذه القوة الفطرية المزعومة والمحددة سلفًا، من حيث كميّتها التي تختلف باختلاف الأفراد، وهي «الذكاء»، وأن الذكاء قوة أو قدرة فطرية فكرية موروثة وموجودة لدى كلٍّ منّا، بمقادير تختلف باختلاف الأفراد، وأن وظيفة التربية والتعليم

5) المفهوم الجديد للبنية التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية- كلية الآداب، زليتن، العدد الأول، د. أحمد مصطفى الحار.

6) محاضرة بعنوان: «التوجيه التربوي والاستثمار البشري»، د. أحمد مصطفى الحار.

— وفقًا لهذه النظرية التقليدية — هي الكشف عنها، وأن البيئة الاجتماعية العامة والتربوية والتعليمية كذلك ليست سوى الوسط، أو المجال الذي تعبّر فيه هذه القوة الفطرية الفكرية عن نفسها، أيْ أن البيئة لا تؤثر مطلقًا في الذكاء، الذي زُعِم أنه فطريٌّ وموروث بكمية معيّنة، لا تزيد ولا تنقص لدى كل إنسان، والذي يؤكد خطأ وتناقض هذه النظرية القديمة، التي استندت عليها فلسفة التربية التقليدية القديمة — أن الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية والتربوية والنفسية التي أُجْرِيَتْ، أثبتت بالدليل العلمي والعملي أن أثر الذكاء ونسبته تتراوح بين 20 إلى 30%، وأن أثر البيئة على حيلة الإنسان وتعليمه وتربيته وثقافته تتراوح بين 60 إلى 70%، كما أثبتت هذه الدراسات العلمية الحديثة أن الإنسان هو الإنسان، علّمْهُ يتعلّم، قدّم له وسائل الحضارة يتحضّر، فالتعليم والتربية والثقافة والعلم والحضارة لا تقتصر على قوم بعينهم، أو على فرد بعينه، أو على جنس بعينه، ولكنها جميعا قدر مشترك بين البشرية جمعاء، بصرف النظر عن اختلافاتهم الجنسية، أو النوعية، أو الاجتماعية، أو اللونية[7]، وهذا يؤكد على أن العلم والمعرفة والتعليم والتربية حقٌّ طبيعي لكل إنسان، ويجب أن لا يُحرَم من هذا الحق الطبيعي، ليتعلم ويتربّى ويعلم ويعرف ويبدع في مجالات العلم والمعرفة والتربية والتعليم والثقافة والفكر والحضارة، وهذا ما يؤكده الركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة، لتحقيق المفهوم الجديد للتربية والتعليم،

7) محاضرات في مادة فلسفة التربية، لطلبة قسم الفلسفة والاجتماع، كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، العام الجامعي 1968-1969ف، د. نوري جعفر.

وفلسفة التربية الجماهيرية الجديدة[8].

وقد أدت نظرية الذكاء الفطري، والمبادئ التي تقوم عليها فلسفة التربية التقليدية القديمة — إلى حدوث نتائج سيئة في حقل التربية والتعليم، وحالت دون ابتداع أساليب تربوية وتعليمية جديدة، لتحسين المستوى التعليمي، وأصبحت نظرية الذكاء الفطري الموروث والمزعوم، الذي تقوم عليه فلسفة التربية التقليدية القديمة سلاحًا سيكولوجيًّا، أو نفسيا، يحمي الكثير من أنظمة التعليم والتربية التقليدية التعسفية والتسلطية، لتضع اللوم بالتخلف والتأخر الفكري والعلمي، والتربوي والثقافي، عند بعض التلاميذ والمتعلمين — على وراثتهم البيولوجية، بدلاً من أن يُوجَّه اللوم إلى أنظمة التعليم والتربية، والمناهج والمقررات، وأساليب التعليم والتربية، وفلسفة التربية القديمة[9].

وطبقًا لنظرية الذكاء الفطري المزعوم — تلك النظرية الخاطئة التي قامت على أساليب فلسفة التربية القديمة، فإن التعليم والتربية ونموّ الإنسان يعني الفراغ، وأن النمو يملأه من خارجه تمامًا كما تملأ بالماء الإناء الفارغ، فنستعجل نموّ الأطفال والتلاميذ، ليصلوا إلى مرحلة الراشدين في أقرب وقت مستطاع وممكن، معنى ذلك أننا نفسر النمو — وفقًا لهذه النظرية الخاطئة والمناقضة للواقع وللحقيقة، وهي نظرية الذكاء الفطري الموروث — على غير حقيقته، وذلك لأننا ننظر إلى مرحلة الطفولة من زاوية الكبار ونقيسها

8) الكتاب الأخضر، الركن الاجتماعي، معمر القذافي.

9) محاضرة بعنوان: «التوجيه التربوي والاستثمار البشري»، د. أحمد مصطفى الحار، وانظر أيضا المفهوم الجديد للبنية التعليمية، مجلة الدراسات الإنسانية- كلية الآداب، زليتن، د. أحمد مصطفى الحار.

بمقاييسهم، دون النظر إليها في حدّ ذاتها، ونحوّل أطفالنا وتلاميذنا – وفقًا لهذه النظرية الخاطئة، ووفقًا لفلسفة التربية التقليدية القديمة – إلى مجرّد أدوات سلبية، تتلقى التربية والتعليم بأسلوب تلقيني، حفظي، استظهاري، تعسفي، تسلطي، وهيمني، وغير إنساني، وبذلك تتحول التربية والتعليم إلى مجرّد طاعة الأطفال والتلاميذ طاعة عمياء لأوامر ونواهي فوقية تسلطية، يمارسها الآباء والأمهات وأولياء الأمور، والمدرسين والمدرسات، على هؤلاء الأطفال والتلاميذ، ويتحول أطفالنا وتلاميذنا في تربيتهم وتعليمهم إلى أشباه حيوانات السيرك في تدريبها، الذي يُقاس بالطاعة العمياء لمدربيها، بدلاً من تربيتهم وتعليمهم وفقًا لفلسفة التربية الجماهيرية الجديدة، التي تؤكد أن التربية والتعليم لا بد أن تتم بأسلوب تربويٍّ جديد قائم على مبادئ الحرية والديمقراطية، واحترام كرامة المتعلم، والطفل صاحب الحق الأول في العملية التربوية والتعليمية، وبأساليب الحب والعطف والتعاون والمساواة، والعدالة، والمشاركة الفعلية والإيجابية من جانب الأطفال والتلاميذ في نجاح العملية التربوية والتعليمية[10].

إن الجو التربوي والتعليمي وفقًا لفلسفة التربية التقليدية، والذي يُحاط به التلاميذ، لمساعدتهم على التربية والتعليم، والنمو السليم، والإبداع والبحث، يشبه إحاطة الحصان المراد تدريبه بجو خاص، يتألف من السَّرْج، واللِّجام، والعَلَف، والأصوات التي يرددها ويطلقها مدربه فيتدرب الحصان دون أن يشارك في عملية التدريب، أي أنه لا يكون طرفًا في عملية ذات طرفين، ويبقى اهتمامه منصبًّا على العلف، وكثيرًا ما يعامَل الأطفال

10) الكتاب الأخضر، الركن الاجتماعي، معمر القذافي.

والتلاميذ وفقًا لمفهوم فلسفة التربية التقليدية القديمة، كما تعامَل الحيوانات في التدريب، ونعوِّد أطفالنا وتلاميذنا، وبخاصة في المراحل الأولى من التعليم على أن يبقى اهتمامهم منصبًّا ومرتبطًا بعلفهم، الذي هو الدرجات والتقديرات، والامتحانات والنجاح، وغيرها، فندربهم كما ندرب الحيوانات بدلاً من أن نربيهم كما نربي الإنسان، ونكتفي بالآثار الظاهرية للتربية على سلوكهم وتصرفاتهم، وتعاملهم مع غيرهم من أفراد المجتمع، ونغفل ونجهل — وفقًا للمفهوم التقليدي لفلسفة التربية، وللتربية والتعليم — جوهر التربية، الذي هو الآثار النفسية العميقة، التي تؤثر في سلوك أطفالنا وتلاميذنا، الآن وفي المستقبل[11].

فالتربية وفقًا للمفهوم الجديد لفلسفة التربية الجماهيرية، تعني عملية يتعلم فيها التلاميذ عن طريق المشاركة الفعلية في الحياة من الكبار أفضل الأساليب المتّبعة للمحافظة على الحياة، وأن التربية ضرورة حياتية واجتماعية، ولا بد أن تقوم على مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة، والمشاركة الفعلية والإيجابية من قِبَل التلاميذ والمتعلمين في العملية التربوية والتعليمية، باعتبارهم أصحاب الحق الأول في العملية التربوية والتعليمية، للرفع من المستوى التعليمي، ونجاح العملية التربوية والتعليمية، وربط التربية بالتنمية في مجالاتها المختلفة، لقيام مجتمع الحرية الكاملة، والاشتراكية العادلة، والوحدة الشاملة، ولبناء المجتمع الجماهيري النموذجي الجديد، الحر السعيد، وليتحقق المفهوم الجديد للتربية والتعليم وفلسفة التربية الجماهيرية، كما

---

11) محاضرات في مادة فلسفة التربية، لطلبة قسم الفلسفة والاجتماع، كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، العام الجامعي، 1968-1969ف، د. نوري جعفر.

أوضحت ذلك النظرية العالمية الثالثة في ركنها الاجتماعي، ليتحقق بذلك تحول المجتمع من التخلف إلى التطوّر والتقدم، ولنبني بذلك الجماهيرية الشعبية النموذج[12].

12) محاضرة بعنوان: «التوجيه التربوي والاستثمار البشري»، د. أحمد مصطفى الحار، وانظر أيضا مجلة الحرفي «التربية والتنمية في الجماهيرية»، د. أحمد مصطفى الحار، 1984ف، وانظر أيضا إلى الورقة المقدمة للندوة العلمية التخصصية الأولى حول التعليم والتدريب التشاركي، التي أشرفت عليها اللجنة الشعبية للتعليم والتكوين المهني، بشعبية طرابلس، مكتب التعليم والتكوين المهني التشاركي، 2001ف د. أحمد مصطفى الحار.